حلم الفتى في غير موضعه جهل

يمدح شجاع بن محمد الطائي المنبجي:

[الطويل]

عَـزِيـزُ أَسًـى مَـنْ دَاؤُهُ ٱلْـحَـدَقُ الـنُّـجْـلُ
عَـيَـاءٌ بِـهِ مَـاتَ الـمُـحِـبُّـونَ مِـنْ قَـبْـلُ (١)
فَـمَـنْ شَـاءَ فَـلْـيَـنْـظُـرْ إِلَـيَّ فَـمَـنْـظَـرِي
نَـذِيـرٌ إِلَـى مَـنْ ظَـنَّ أَنَّ ٱلـهَـوَى سَـهْـلُ (٢)
وَمَـا هِـيَ إِلَّا لـحْـظَـةٌ بَـعْـدَ لَـحْـظَـةٍ
إِذَا نَـزَلَـتْ فـي قَـلْـبِـهِ رَحَـلَ الْـعَـقْـلُ (٣)
جَـرَى حُـبُّـهَـا مَـجْـرى دَمِـي فـي مَـفَـاصِـلِـي
فَـأَصْـبَـحَ لِـي عَـنْ كُـلِّ شُـغْـلٍ بِـهَـا شُـغْـلُ (٤)
سَـبَـتْـنـي بِـدَلٍّ ذَاتُ حُـسْـنٍ يَـزِيـنُـهـا
تَـكَـحُّـلُ عَـيْـنَـيْـهَـا وَلَـيْـسَ لَـهَـا كُـحْـلُ (٥)
كَـأَنَّ لِـحَـاظَ الـعَـيْـنِ فِـي فَـتْـكِـهِ بِـنَـا
رَقِـيـبٌ تَـعَـدَّى أَوْ عَـدُوٌّ لَـهُ دَخْـلُ (٦)

---

(١) و (٢) عزيز: نادر الوجود. الأسى: الشفاء والعلاج، الحدق النجل: العينان الواسعتان. العياء: المرض الصعب الشفاء وقد أعيا الأطباء. يبدأ الشاعر قصيدته المدحية بمطلع غزلي، مفاده أن من ابتلي بعشق من كانت حدقتاها واسعتين فتّاكتين، فإنه قد فُدح بمرض عُضال لا شِفاء منه ولا دواء له ناجع، ومآله إلى موت محتّم شأنه في ذلك شأن المحبين قبله؛ وهو مثال حيّ على صدق مدعاه، لذا فمن أحبّ الوقوع بتجربته، فعليه قبل كلّ شيء ليتعظ ويتأكّد أن الهوى ليس سهلاً، بل هو نذير شؤم وعذاب.

(٣) إنها رحلة لحظة فيها تتبادل النظرات انفعالاتها، فإذا بمن قُدّر عليه أن يقع فريسة العذاب، فإذا بعقله قد شرد بعيداً عنه؛ فمشاعره قد صودرت وقلبه قد قيّد بقيد لا فِكاك منه.

(٤) الدم عنصر الحياة البشرية، وإذا ما خالط الحبّ الدم، فقد شملت حركته كلّ أعضاء الكائن الحيّ، فلا يتركّز بمكان واحد، إنه في القلب والعينين والدماغ وو... وهذا يعني أنه لا خلاص منه إلّا بالموت كالمرض العُضال لا شِفاء منه.

(٥) و (٦) يقول الواحدي: إن البيتين التاليين منحولان وليسا من أصل القصيدة. سبتني: =

وَمِـنْ جَـسَـدِي لَـمْ يَـتْـرُكِ الـسُّـقْـمُ شَـعْـرَةً
فَـمَـا فَـوْقَـهَـا إِلَّا وَفـيـهَـا لَـهُ فِـعْـلُ[١]
إِذَا عَـذَلُـوا فِـيـهَـا أَجَـبْـتُ بِـأَنَّـةٍ
حُـبَـيِّـبَـتِـي قَـلْـبِـي فُـؤَادِي هَـيَـا جُـمْـلُ[٢]
كَـأَنَّ رَقِـيـبـاً مِـنْـكِ سَـدَّ مَـسَـامِـعِـي
عَـنِ الْـعَـذْلِ حَـتَّـى لَـيْـسَ يَـدْخُـلُـهَـا الْـعَـذْلُ[٣]
كَـأَنَّ سُـهَـادَ ٱلـلَّـيْـلِ يَـعْـشَـقُ مُـقْـلَـتِـي،
فَـبَـيْـنَـهُـمَـا فـي كـلِّ هَـجْـرٍ لَـنَـا وَصْـلُ[٤]
أُحِـبُّ الَّـتِـي فـي الْـبَـدْرِ مِـنْـهَـا مَـشَـابِـهٌ،
وَأَشْـكُـو إِلـى مَـنْ لَا يُـصَـابُ لَـهُ شَـكْـلُ[٥]
إِلَـى وَاحِـدِ الـدُّنْـيَـا إِلَـى ٱبْـنِ مُـحَـمَّـدٍ
شُـجَـاعَ الَّـذِي لِـلَّـهِ ثُـمَّ لَـهُ الْـفَـضْـلُ[٦]

= أسرتني. الدلّ: الدلال والغنج. اللحاظ: مؤخر العينين. الدخل: الريبة. إنها ذات تأثير بحيث استولت على مشاعر الشاعر، فهي مغناج، دلالها أخّاذ، وجمالها ساحر، فإذا ما نظر إليها العاشق وجد عينيها قد تكحّلتا خِلقة، وهي لم تصطنع كُحلاً، وهذا ما جعلهما تفتكان به دون رحمة، ودون حوائل وموانع؛ فالرقباء والأعداء لم يحولوا بين الشاعر وسحر عينيها.

(١) السقم: المرض. ومن شدّة تأثير هذا الحبّ أنه ألمّ به المرض فغزا سائر جسمه، فبدت علائمه عليه ولم يترك جارحة فيه إلّا غزاها.

(٢) عذلوا: لاموا. أنَّة: صوت خافت يصدر عن ألم. يُعلن الشاعر عن شدّة تعلّقه بمعشوقته، رغم لوم اللائمين، وردّه عليهم جميعاً أنين نابع من القلب، وهو مع ذلك لا يستصرخها، ولسان حاله يقول: هي قلبي فلا أفارقها ولا أهتمّ لمقولة عاذل.

(٣) مسامع: أذنيّ. يُخاطب الشاعر محبوبته معاتباً؛ فسبب عدم سماعه لوم العذال كأنها أقامت على أذنيه رقيباً يحول بينه وبين لائميه فلا يسمع مقولتهم التحريضية عن عدم الانسياق وراءها.

(٤) السهاد: الأرق وعدم النوم. يعشق: يُحبّ. الهجر: البعد، ومن معاناة الشاعر أنه لا يعرف للنوم طعماً؛ فهو يقضي ليله ساهراً أرقاً ممَّا يُوحي بأن عشقاً يربط بين عينيه وسهاد الليل، ولا يحدث هذا إلّا نتيجة الهجر ولوعة الفراق بينه وبين حبيبته.

(٥) و (٦) مشابه: مثيل. يُصاب: يُوجد. الفضل: الجود. يتخلّص الشاعر من الغزل إلى =

إِلَـى الـثَّـمَـرِ الْـحُـلْـوِ الَّـذِي طَـيِّـئٌ لَـهُ
فُـرُوعٌ وَقَـحْـطَـانُ بْـنُ هُـودٍ لَـهُ أَصْـلُ (١)
إِلَـى سَـيِّـدٍ لَـوْ بَـشَّـرَ ٱللَّـهُ أُمَّـةً
بِـغَـيْـرِ نَـبِـيٍّ بَـشَّـرَتْـنَـا بِـهِ الـرُّسْـلُ (٢)
إِلَـى الْـقَـابِـضِ الْأَرْوَاحِ وَالـضَّـيْـغَـمِ الَّـذِي
تُـحَـدِّثُ عَـنْ وَقْـفَـاتِـهِ ٱلْـخَـيْـلُ وَالـرَّجْـلُ (٣)
إِلَـى رَبِّ مَـالٍ كُـلَّـمَـا شَـتَّ شَـمْـلُـهُ
تَـجَـمَّـعَ فِـي تَـشَـتُّـتِـهِ لِـلْـعُـلَـى شَـمْـلُ (٤)
هُـمَـامٌ إِذا مَـا فَـارَقَ الْـغِـمْـدَ سَـيْـفُـهُ
وَعَـايَـنْـتَـهُ لَـمْ تَـدْرِ أَيُّـهُـمَـا الـنَّـصْـلُ (٥)

= الممدوح؛ فحبّه كرّسه لمن لا شبيه لها في النساء، إنها البدر جمالاً ونوراً وأنساً وارتفاعاً، فهي تسمو على سائر بنات جنسها ولذا فهو يشكوها لمن لا يُعثر على شبيهه في الرجال؛ إنه واحد الدنيا في صفاته، إنه ابن محمد شجاع وريث حسب ونسب، فباستطاعته مساعدة الشاعر وأفضاله علّه أن يُدرك حبيبته.

(١) طيّئ: قبيلة الممدوح. قحطان بن هود: أبو قبائل اليمن. يمدح الشاعر ممدوحه بأنه ينتسب إلى عرب اليمن، فهو ثمرة الخير من شجرة مباركة، تبدأ بقحطان بن هود وتنتهي بطيّئ، ذلك الغصن الندي، والممدوح ثمرته اليانعة الحلوة.

(٢) ومن مغالاة الشاعر أن رفع ممدوحه ليكون سيد الناس، حتى لو كان رسول سيأتي الأمة بعد النبيّ ﷺ لطلب اللّه تعالى إلى رسله أن يُبشّروا بممدوحه آخر الزمان.

(٣) الضيغم: من أسماء الأسد. يُنوّه الشاعر بقوّة وشجاعة ممدوحه، إنه قابض الأرواح وأسد قوي ذو مهابة تتناقل الألسن أخبار شجاعته، فالفرسان يُشيدون بجولاته وصولاته في ميادين القتال، والفرسان يشهدون له بإنجازاته البطولية، حتى الرجالة يشهدون له بإنجازاته البطولية العظيمة.

(٤) شتّ: فرّق. الشمل: الاجتماع. يمدح الشاعر ممدوحه بالكرم؛ إنه غنيّ يودّ اكتساب المعالي لذا سرعان ما يُوزّعه على أصحابه وأحبائه، وهو في ذلك يبغي أن يُجمع الكلّ على الإشادة بمعاليه وفضائله.

(٥) الهمام: الملك العالي الهمّة. الغمد: جفن السيف. ينوّه الشاعر بصفات ممدوحه؛ إنه يأخذ الأمور بجدّ، فلا يتوانى لعلوّ همّته، وفي حال عزم على القتال، فهو يجرّد =

رَأَيْتُ ٱبْنَ أُمِّ الْمَوْتِ لَوْ أَنَّ بَأْسَهُ
فَشَا بَيْنَ أَهْلِ ٱلْأَرْضِ لَانْقَطَعَ النَّسْلُ (١)
عَلَى سَابِحٍ مَوْجُ الْمَنَايَا بِنَحْرِهِ
غَدَاةَ كَأَنَّ النَّبْلَ فِي صَدْرِهِ وَبْلُ (٢)
وَكَمْ عَيْنِ قِرْنٍ حَدَّقَتْ لِنِزَالِهِ
فَلَمْ تُغْضِ إِلَّا وَالسِّنَانُ لَهَا كُحْلُ (٣)
إِذَا قِيلَ رِفْقاً قَالَ لِلْحِلْمِ مَوْضِعٌ
وَحِلْمُ الفَتَى فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ جَهْلُ (٤)
وَلَوْلَا تَوَلِّي نَفْسِهِ حَمْلَ حِلْمِهِ
عَنِ ٱلْأَرْضِ لَانْهَدَّتْ وَنَاءَ بِهَا ٱلْحِمْلُ (٥)

= سيفه، فإذا بنا أمام سيفين لمضائهما وسرعة صولة الممدوح فلا يدري المرء أيهما السيف الحقيقي.

(١) ابن أم الموت: أي أخ الموت. البأس: الشدّة. فشا: انتشر. النسل: التوالد. يمدح الشاعر ممدوحه بأنه يقتل أعداءه بلا رحمة فيُفنيهم، والخوف أن يشمل غضبه سائر أهل الأرض فينقطع النسل، فلا يبقى مخلوق على وجه الأرض وهذا من مغالاة الشاعر.

(٢) السابح: الفرس الذي يعدو كأنه يسبح. المنايا، الواحدة منيّة: الموت. النحر: الرقبة. الوبل: المطر. يطوف الممدوح في ساحة الميدان على ضحاياه ممتطياً جواداً رشيق الحركة، فينشر الموت في أرجاء المعمعة، وهو يتلقّى النبال بنحره وصدره فتنهمر عليه انهمار السيل الجارف.

(٣) القِرْن: الكفوء في الميدان. حدّقت: دقّقت النظر بإمعان. النزال: الحرب. لم تغض: لم تغْمض. ومما يدلّ على قوّة الممدوح في ساحة المعركة، فلو أن كفوءاً دقّق النظر تحدياً أو إعجاباً لكان الممدوح أسرع استجابةً، فإذا به يوجّه إليه رمحاً يُكحّل به عينه فلا يعود يُبصر شيئاً.

(٤) إنها حياة أو موت في ساحة المعركة، وقد يُطلب من الممدوح أن يرفق بالأبطال، فيردّ على من طلب منه ذلك: إنها المعركة ولا رحمة أو رفق، لأن أي تهاون يُودي بصاحبه إلى التهلكة، والحلم موضعه في السلم، وهذا يدلّ على علوّ شأن المرء في هذه الحالة.

(٥) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٩٠. يروى «فلولا» بدلاً من «ولولا». =

تَبَاعَدَتِ الآمَالُ عَنْ كُلِّ مَقْصِدٍ
وَضَاقَ بِهَا إِلَّا إِلَى بَابِهِ السُّبْلُ (١)
وَنَادَى النَّدَى بِالنَّائِمِينَ عَنِ السُّرَى
فَأَسْمَعَهُمْ هُبُّوا فَقَدْ هَلَكَ الْبُخْلُ (٢)
وَحَالَتْ عَطَايَا كَفِّهِ دُونَ وَعْدِهِ
فَلَيْسَ لَهُ إِنْجَازُ وَعْدٍ وَلَا مَطْلُ (٣)
فَأَقْرَبُ مِنْ تَحْدِيدِهَا رَدُّ فَائِتٍ
وَأَيْسَرُ مِنْ إِحْصَائِهَا الْقَطْرُ وَالرَّمْلُ (٤)
وَمَا تَنْقِمُ الْأَيَّامُ مِمَّنْ وُجُوهُهَا
لِأَخْمَصِهِ فِي كُلِّ نَائِبَةٍ نَعْلُ (٥)

= ناء: ثقل. انهدت: اندكت وتحطّمت. ولبعد همَّته، فقد آلى على نفسه أن ينهض بحلمه بنفسه ليدلّ على قدرة عظيمة لديه في حالة السلم وإلّا لكانت الأرض انهارت ولم تستطع القيام بحمل عظيم، فإذا به يتطوّع عنها ليقوم بعمل عظيم كهذا.

(١) يروى «بابك» بدلاً من «بابه». لقد ضاقت بالبشر السبل، لكثرة آمالهم ومتطلباتهم، فناء بها كثيرون، ولكن باب الممدوح قام بتلبية مطالب الناس لقدرته على ذلك، فضلاً عن إمكانياته المالية والمعنوية.

(٢) الندى: الكرم. السُّرى: السير ليلاً لطلب الرزق. هلك: مات. إنه الصيت الحسن؛ كرم لا حدود له، فإذا بالندى يستحثّ الكُسالى على الطلب أن انهضوا واقصدوا الممدوح سيراً في الليل، فقد أمات البخل لأنه عدوّ ذميم، فمن طبيعة الممدوح أن يقتل أعداءه.

(٣) حالت: اعترضت، منعت. المطل: التسويف. ومن حسن أخلاق الممدوح أنه يُسارع بالعطاء بحيث لا يترك مجالاً لأحد ليطلب رفده، وهذا أراح المحتاجين من ذلّ السؤال، وهو لا ينجز وعداً، لأنه أصلاً لا يعدو يُماطل، فانتفت الحاجة بانتفاء أسبابها.

(٤) إحصائها: عدّها. يُردف الشاعر حديثه عن عظم كرم ممدوحه، فإحصاء مجالات عطائه وذكر أصحابها لا يُعدّ ولا يُحصى لكثرته، فمن المحتمل أن تُحصى الرمال والأمطار ولكن من المستحيل أن تحدّد قيمها. وذلك من مغالاة الشاعر كعادته في الحديث عن كرم ممدوحيه.

(٥) الأخمص: باطن القدم. ومن مغالاة الشاعر أن الأيام مغيظة بأفعال ممدوحه، فقد =

وَمَـــا عَـــزَّهُ فِـــيـــهَـــا مُـــرَادٌ أَرَادَهُ
وَإِنْ عَـــزَّ إِلَّا أَنْ يَـــكُـــونَ لَـــهُ مِـــثْـــلُ[١]
كَـفَـى ثُـعَـلاً فَـخْـراً بِـأَنَّـكَ مِـنْـهُـمُ
وَدَهْـرٌ لِأَنْ أَمْـسَـيْـتَ مِـنْ أَهْـلِـهِ أَهْـلُ[٢]
وَوَيْـلٌ لِـنَـفْـسٍ حَـاوَلَـتْ مِـنْـكَ غِـرَّةً
وَطُـوبَـى لِـعَـيْـنٍ سَـاعَـةً مِـنْـكَ لا تَـخْـلُـو[٣]
فَـمَـا بِـفَـقِـيـرٍ شَـامَ بَـرْقَـكَ فَـاقَـةٌ
وَلَا فِـي بِـلَادٍ أَنْـتَ صَـيِّـبُـهَـا مَـحْـلُ[٤]

= غلبها لذا نقمت عليه، فقد أذلَّها وأخضعها لإرادته فإذا بوجوهها ديست بأرجله حتى باتت كالنعل ينتعلها لخضوعها له.

(١) عزّه: تفوّق وتغلّب. يُفضل الشاعر ممدوحه على سائر البشر، فباستطاعته أن يجد ما يريده فلا يعترضه شيء ولا يصعب، فهو الغالب المنتصر دائماً، ولكن شاءت الأقدار ألّا يجد شبيهاً له بين البشر.

(٢) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ١: ٢٠١، مغني اللبيب وشرح شواهده، للسيوطي: ١٠٧. يُخاطب الشاعر ممدوحه بأنه مفخرة قبيلة ثعل التي ينتمي إليها، حتى الدهر يفخر أن الممدوح نجمه الذي يفخر به لإطلاله على البشرية في ذلك الوقت.

(٣) الغِرَّة: الغفلة. طوبى: حسن. الويل: العذاب. يتمنّى الشاعر سوء العذاب لمن يبغي الإيقاع بممدوحه بالحيلة والغدر والغفلة، وفي المقابل فإنه يتمنّى الخير والحياة السعيدة لمن يُحبّ رؤية ممدوحه سعيداً ينعم برغد الحياة وطيبها.

(٤) شام: نظر إلى الممدوح آملاً أن ينال منه خيراً. البرق: الضوء ينبعث من بين الغيوم. الفاقة: الحاجة. الصيّب: المطر الغزير. المحل: الجفاف وانقطاع المطر. يُخاطب الشاعر ممدوحه مثنياً على كرمه؛ فما من فقير إلّا ونفسه مفعمة بالآمال الكبار بأن يحصل على ما يبغيه من مساعدة مالية، بحيث يعمّ سائر البلاد الخير من يديه، فينتفي الجفاف من حياة الناس، ويعيشون برغد العيش.